

صفحة ذهبيّة من تاريخ لبنان

البطريق اللبناني

الياس بطرس الحويك

بقلم الحوري منصور عواد عواد

٤

موقف البطريرك من ربه

لا أغالي اذا قلت ، وقد اختبرت بنفسي ، واختبر طويلاً غيري اناس ذوو
مراتب خطيرة لا يكذبون ولا يمارون ولا يواربون ولمهم الفهم السامي والعلم
الوافي والفضيلة الراسخة ، ان البطريرك الياس الحويك كان اقرب الناس الى
اولياء الله ، ان لم اقل انه كان من اوليائه تعالى !

فقد كان كله لله في حياته الفردية والصومية ، كان له بكلّيته في طفوليته
عهد كان لا يعرف الا حلتا وكنيستها ، كما كان له عهد صار بطريركاً وبلغ
اوج مجده والثقل حوله لبنان قاطبة . كان لله في سره وفي علنه ، في ايام
راحته وفي اشد ايام متاعبه . كان لله يوم قابل السلطان عبد الحميد ، عهد كان
مظفر باشا يحاربه تحت لواء الماسونية في لبنان والامانة ، كما كان لله يوم
ازدان صدره بالمجيدي المرصع ! كان لله يوم كان الناس يموتون جوعاً في لبنان
حوله ابان الحرب الكونية والمجاعة اللبنانية ، ويوم استدعاه جمال بلش الى
عاليه لينفيه ، وساعة وقمت عينه على عين ذلك الطاغية ، كما كان له عند ما
زار غر فرنسة كليمنصو في باريس ، عهد كان ممقوداً فيها مؤتمراً للسلام ، كما
كان لله يوم عاد الى لبنان حاملاً صك استقلاله ، وأقيم له ذلك المهرجان
التاريخي الخالد !

ولو استطننا ان نرى الملائكة ونخاطبهم لآلنا عنه ملاك الحارس الذي ما
فارقه قط منذ ابصر النور في حلتا الى ان اغمض عينيه في بكركي ، ولا جابنا

الملاك. بان البطريق اللبناني الكبير من ولادته الى وفاته كان كله لله .
واذا كان قد بدر منه هفوة فلم تكن عن سوء قصد ولا عن نية ملتوية ،
بل كانت برهاناً على ان الانسان مهما بلغ من الكمال يظل عرضة للانخداع
واللطط ليظهر بذلك كمال الله وعصته الوحيدة ا

ولا شك في ان سرّ توفيق الحويك في جميع اموره وسر نجاحاته من جميع
الاممات التي ألتت به والمكائد التي كيدت له ودرها الذين لم يخطر ببال احد
انهم يكيدونها ، بل سرّ عظمته بل سرّ تصيره مع سلامة حواسه الخارجية
والداخلية وقواه العقلية جميعها حتى آخر ساعة من حياته ، كان في اتحاده بالله
ومحبته اياه عز وجل . وان ذلك الاتحاد وتلك المحبة قد خلطاً مسحة من وقار
الله ومن جلاله على عينيه وعلى وجهه تهيه لاجلها جمال باشا ، كما كان قد
تهيه قبله « سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان ابن السلطان السلطان
عبد الحميد خان » في اعظم ايام مجده وسودده واستبداده ا او ليس مسحة
من الله ذلك الوقار الذي كان يجذب اليه الطفل الصغير رقة وحلاوة ودعة
ويلقي المهابة والاحترام في صدر المستبد الطاغية والنمر من قواد الجحافل كجمال ،
ومن قادة الساسة نظير كليمنصو ، ورب العرش الدموي كعبد الحميد ؟

ان سرّ اجتماع القلوب على محبة الحويك وعلى احترامه وعلى الثقة الممياء به
وعلى اتفاق اللبنانيين قاطبة في تقليد اياه الزعامة المدنية العامة للمطالبة باستقلالهم
رغم ما كانوا عليه ولا يزلون من اختلاف الاديان والطوائف والمشارب والتايات
لمو في محبته لله ، اذ جعلته على مثاله محباً للجميع يحبه الجميع ويهابونه ويتكلمون
عليه ولا يرتلون بصدقه واخلاصه ا

أجل ان من كان يملك الله فهو مالك كل شيء مهما كان فقيراً . ومن
يملك كل شيء . ولا يملك الله فهو اقمر الناس واحوجهم الى الشفقة ا

فلننظر كيف كان الحويك كله لله في حياته الفردية ثم المموية .

صوقف الخوبك من رب في صبار الفرب

في بكركي ، بين السادة الاساقفة ، شخص رافق الخوبك من ساعة انتخابه بطريكاً على كرسي بطرس الانطاكي الى ساعة أودع في اللحد امانة يوم القيامة ! ذلك الشخص هو شاهد عيان لحياة الخوبك اليومية في اثنين وثلاثين عاماً . هو المطران عبدالله خوري . فلهم نأله كيف كان يقضي البطريك يومه في ايام المهرجانات العظيمة ، يوم كان يستعد لمواجهة الجبر الاعظم ، او لمقابلة السلطان ، او للوقوف بين يدي عظيم من عظماء الارض ، او للبحث مع دهاقنة السياسة وكبار رجالها في الامور الخطيرة التي يتوقف عليها مستقبل طائفته وبلاده . أكان يختلف عنه يوم كانت المجاعة في لبنان تحصد ابناءه بمشرات المسات يوماً ، الى يوم كان المدوء والكينة يرفآن فوق بكركي وفوق الديان ؟

للبطريك الخوبك تجاه ربه في كل بطريكيته يوم واحد وموقف واحد لم يتغير في حل ولا في ترحال ، ألا عند ما كان يزججه الداء . فكان للبطريك في مرضه يوم آخر من ايامه امام ربه له شكله الخاص لا يختلف عنه في داء وداء !

كان ينهض من رقاده باكراً ويتحتم بالماء البارد وينصرف الى صلواته رافعاً عقله وقلبه الى الله ، مخصصاً نهاره كله لله ، مبتدئاً بصلاة الفرض الالهي يتلوها بعبادة وخشوع وتأنر : كما تلاها في اليوم الاول لكهنوته تحمسه وهو يتلو فرضه يخاطب ملكاً ماثلاً امامه بكل جلال الملك وسلطانه . ولا غرو فقد كان ايمانه بالله حياً عظيماً ، وكان يعلم انه في حضرة ملك الملوك وارب الارباب وسيد السادات . فلا ينتهي من صلاته الفرضية حتى ينصرف الى الصلوات العقلية صارفاً فيها ساعة كاملة . ثم يعود الى صلواته اللفظية في كتاب صغير كان رفيق البطريك منذ صباه في مدرسة مار يوحنا مارون في كفرحي ، وفي غزير ، ورومية ، وفي الكرسي البطريكي عهد كان كاتم اسرار وفي عهد

الإستية ، وقد لازم البطريـك حتى آخر يوم من أيام حياته . على أوراق ذلك الكتيب السعيد الخطّ آثار من يدي الحويك تنبئ الناظر إليها الى قدم صهدها به ومن الكتيب تنبث رائحة قداسة الحويك ا

كان يظل البطريـك في صلوات الصباح حتى الساعة الثامنة . ثم يفتح بابه لحاشيته ويبتدئ بالقداس الالهي في مبعده الخصوصي .

كل من حضر الذبيحة الالهية يتلوها البطريـك الحويك لم يرفقاً بينه وبين ما تقرأه في هذا المعنى عن القديسين فيلپوس النيري وفرنوا دي سالى او عن البابا بيوس العاشر . فأخـر قداس اقامه بذاته في بكركي ، قبل ان يغادر هذه القانية كان كقداسه الاول الذي اقامه في رومية بين مدامع التغذية والقرح والحب الالهي ا كان في القداس يحافظ على كل الحركات الطقسية ، اذا جئنا تطرق ركبته الارض فيسمع لها دوي مؤثر ، وكان الركوع يزججه جداً بهذا الشكل لانه كان بديناً ، ومع ذلك فـا كان يغير من هذه الحركة ولا يختصرها . وكان اذا لدب صدره تحاله بطرس الرسول عند صياح الديك ا واذا رفع عينه الى السماء تحب موسى كلم الله عندهما كان باسطاً ذراعيه يصلي لاجل انتصار شـب الله في حرب عماليق " وكم كان يزججه الجثو الى الارض في شيخوخته غير انه ما غير عاداته ولا حاد عنها قيد شـرة ا

وعندما كان ينظر الى الذبيحة على مذبح الرب كان الناظر اليه يظنه في عليـة صهيون ليلة العشاء السري يشاهد الرب يسوع وجهاً لوجه ا ومتى صمت كان يطول صته هية واحتراماً لابن الله المحتجب امامه تحت اعراض الخبز والخمر . الا ان من كان ولا يزال محتجباً عنا لم يكن محتجباً عن البطريـك الحويك ، لان عين ايمانه الحي كانت تشق حجاب السر الالهي وتلج الى مخدع اللاهوت والناسوت في سادة الخلود فتري الرب يسوع كما يشاهده السماء في النسيم الخالد ا هكذا كانت تقول حركات البطريـك اللبناني ولحظاته واساراته وسكوته

على المذبح ا

وعندما كان يتمي من الذبيحة الالهية كان يجثو امام القربان فيتلو صلوات الشكر اللفظية المألوفة في الطقس الماروني ثم يفوس في بحر المحبة الالهية شاكراً ، حامداً ، متأملاً ، طالباً ، واعداء . فيصرف ساعة لا يتحرك يمنة ولا يسرة كأنه تمثال وقبل ان ينهض يثلث في الهيكل ليرى ما اذا كان هنالك احد حتى اذا أمن الرقباء انطرح على الارض مكباً على وجهه يقبل الحضيض كأنه يردد مع المرتل : « ما احب مساكنك يا رب القوات . تشتاق وتذوب نفسي الى ديار الرب ويرثم قلبي وجسمي للاله الحي . المصفور وجد له مأوى واليامة عشاً تضع فيه افراخها . من لي بمذايحك يا رب الجنود ملكي والمهي . . . ان يوماً في ديارك خير لي من الف »^(١)

وعندما ينهض ولا يرى احداً يراقبه بل يخلو في المبدد وحده يطوف على جدران المبدد يقبل صور العذراء والتديسين المعلقة عليه صورة صورة واقفاً امام كل صورة دقيقة يتلو فيها بعض الصلوات اللفظية ، فكان في ذلك يمد عهد سذاجته وطفوليته عندما كان يختلف في حلتا الى الكنيسة سرّاً عن والديه وهنالك يجثو ويصلي ويقبل اولياء الله نفوسهم ويخاطبهم كأنهم احياء امامه . ولا عجب اذا كان دائم على تلك الخطئة فالشاب على طوقه وانه شاب لا يجيد عنها : فسذاجة الحويك في طفولته في حلتا رافقته في جميع ادوار حياته الفنية بالحوادث والسنين حتى آخر نفس من انقاسه على هذه الارض كالشمس ما عابها انها منذ خلقت النير الاكبر الى اليوم لم تتغير بل كان في هذا كالمها .

ان موقف الحويك البطريك الكبير من ربه في طفولته كان ساذجاً بسذاجة الطفولية غير ان سذاجته في سائر ايام حياته ولاسيا في عهد بطريركيته كانت سذاجة الحكمة الالهية والقداسة اذ كان قد ادرك ، منذ بلغ رشده ، كلام السيد المسيح الباقول : « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل (هؤلاء الصغار) فلن تدخلوا ملكوت السموات »^(٢) فحافظ على طفولته الى نهاية شيخوخته في

جميع مظاهرها الجميلة البارّة محافظةً على تعليم السيد المسيح ، فكان شيخاً في صباه بعقله وقلبه ، وكان طفلاً في شيخوخته بسذاجته وبراقته .

يخرج البطريك اللبناني من مبدئه ، فيتناول طعام الصباح ، فيأكل جيداً مصلياً قبل الأكل وبعد . ثم ينصرف الى اشغال البطريكية بكل هدوء وطأنينة ناظراً الى الله في كل ما يصله فيخاله جليسه او زائره لوقاره ووزانته كأنه لا يزال في الكنيسة ، يتحدث عن كل شيء ويروي لزاويه النبكات والفكاهات التاريخية لا يعرف المزمل ، ولا تخرج من فيه كلمة تمس القريب او تمحدث الآداب او تخرج فضيلة من الفضائل فكان انموذجاً حياً للكمال المسيحي . فكانه كان لا يزال يتذكر في كل كلمة يقولها كلمته في نشيد « المجد لله في الملا وعلى الارض السلام » الذي تلاه في الذبيحة الالهية اثناء القداس وهي تلك الآية الالهية : « اقم يارب حافظاً لقمي وحارماً لشفتاي » ولقد استجاب الله لما نطق به بكلمة يواخذ عليها امام الله او امام الناس ا

كان يتناول طعام الظهر مع حاشيته البطريكية وزاويه أياً كانوا فيلازم الصمت ويأكل جيداً . وبعد الأكل يزور القربان الاقدس مع جميع جلسائه على المائدة ، ثم يصرف معهم نصف ساعة في مجلسه ، وهو على « طراحته » التاريخية يحادث الكبير والصغير من ابناء طائفته ومن سائر ابناء الاديان والطوائف بلهجة واحدة هي السذاجة المقرونة بالوقار . ثم يختلي في غرفته فيرتاح قليلاً وينهض مجدداً الى تلاوة صلاة المساء الفرضية ثم يقرأ في الكتب الروحية فلا يفتح بابه الا عند الساعة الرابعة فينصرف من ثم الى اشغال البطريكية الى ما بعد مغيب الشمس نحو الساعة السابعة فينادر الجناح البطريكي ، ويقرع الارض بعصاه تلك القرعات التقليدية التي كان موصوفاً بها ، فلن تبلغ آذان من في الدار البطريكي حتى يترك كل واحد عمله وينهض مبادراً الى الكنيسة قائلاً لمن كان مجهول منزى تلك النعمة : ان السيد البطريك يدعو بعصاه الى الصلاة الصومية . وهذه علامة منه في كل عمل من الاعمال المشتركة في البطريكية .

كان يتراأس بذاته الصلوات اليومية الجمهورية في الكنيسة ، ولا يترك

واحدة منها يوماً فيوماً . وبعد الصلاة والمشاة يصرف وقتاً مع حاشيته وزائريه في القاعة الصغيرة . وفي ساعة مميّنة اي نحو الساعة الثامنة والنصف ينصرف الى حجراته ويقفل مضدعه ويعود الى الصلاة والابتهاال الى ساعة متأخرة من الليل .

ومأ يلفت النظر ان البطريرك الحويك كان يعترف كل اسبوع مرة متخذاً له مرشداً دائماً دائماً احد الكهنة امناه اسراره يحشو بين يديه معترفاً بهفواته ، فادماً عليها ، عاملاً بإرشاد مرشده

ولائل ان يسأل بماذا كان يعترف البطريرك القديس وما كانت خطاياها ؟ هذا لا يعرفه الا الله . ولكننا نعلم ان القديسين جادوا على هذه الخطوة الحميدة ليس لانهم كانوا خطاة ، بل لانهم كانوا يعترفون بأصغر الهفوات وبكل ما كانوا يمتدرونه تقصيراً في واجباتهم . ومن هذا النوع كان اعتراف البطريرك الحويك . فانه كان ينظر الى واجباته في مركزه الخطير ، مدققاً في اعماله اليومية كلها ، مراجعاً ايما عملاً فعملاً ، وازناً كل عمل بميزان الحق والعدل ، محاسباً نفسه قبل ان يحاسبه ربه على اعماله ، حتى اذا شام تقصيراً في امر يادر الى التوبة والاعتراف والقصد الصالح بعدم العودة وباتسديق في واجباته . تلك امثولة شريفة لكل رئيس روحي وزمني .

ومن دلائل حبه ليسوع الاله المحتجب في القربان المقدس انه ما كان يتروك زيارة القربان يوماً واحداً بل كان ينفرد عند الاصيل باله المحبة ، صارقاً امامه في الهيكل الوقت الطويل في مناجاة قدسية يستمد منه العون والايدي في مهام بطريركيته .

هذا كان شأن البطريرك اللبناني من واجباته الشخصية نحو ربه يتبناها كل يوم بترتيب عجيب . ولو اننا حسبنا ايام بطريركيته كلها لما رأيناها تختلف عن بعضها بشيء ، بل تتشابه يوماً واحداً فلا السياسة العظيمة ولا البلايا ولا الشدائد ولا المهرجانات ولا زيارات كبار الدين والدنيا ولا المشاكل الدينية او المدنية بدلت من حياته او عدلت من مسلكه وخطته مع ربه . ومع قيامه

الديني بجميع فروضه الدينية كأنه ناسك من النّسك المقرون في المحاسن
اكليزيكي في المدرسة الاكليزيكية ، ما قصر قط بواجباته نحو البطريوك
بل كان يتم كل شيء بدقة ونظام ووضوح ويطلع بذاته على كل شيء
الشؤون الروحية والزمنية يهده ورحابة صدر .

وكان شغفاً بطلالة اعترافات القديس اغوسطينوس ، وكتاب الاقنوم
بالمسيح . ولشديد اتكاله على الله وعلى عنايته الالهية ، ما ظهر عليه قط القبح
في حياته على شيء اياً كان ، ولا ارتبك في قول المصائب ، بل كان الارتفاع
بادياً على اساره والطأنينة ظاهرة في عينيه شأنه في ذلك شأن الطفل
ذراع والديه لا يفكر في شيء ولا يحاف على نفسه من شيء لانه في آمن مرض
فلكل كامن ، ولكل رئيس روحي ، امثلة قاسية في حياة البطريوك
العظيم . فان اقل المشاغل تشغلنا عن فروضنا الدينية وواجباتنا اليومية فتقاع
ونضطرب ونقصر في واجباتنا ، ونلتس الاذن للتخلص منها كأنها عبء ثقيل
علينا . وتارة نؤجل ، وحيناً نؤجل ! فن متأ عليه من المهام ما كان على ذلك
البطريوك ؟ ومع هذا فان النّسك في البرية ما كانوا اكثر منه تدقيقاً
المحافظة على الفروض الروحية اليومية !

ان هذا هو الزر القليل الذي توصل اليه اختبارنا من معرفة حياة البطريوك
الروحية الفردية ، ولا سبيل الى معرفة اكثر من ذلك بما انه كان عاملاً بقوى
الانجيل :

« اما انت فاذا صليت فادخل مخدعك واغلق بابك وصل الى ابيك
في الخفية وابوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك »^{١١}
اما الذي استقيناه من حياة البطريوك الفردية فقد اختلناه خلسة .
مراقبه او من مراقبة الذين لازموه في جميع حياته البطريكية او في الشدة
الاكبر منها .

غير اننا سنقف على حياته الفردية من درس حياته الصومية تجاه ربه . لا

الاعمال العمومية التي كان يعملها تجاه طائفته وبلاده كانت تظهر ما انطوى عليه قلبه من حب الله وحب القريب ، وفيه قد صدق المثل القائل : « ان الاناء ينضج بما فيه » بل صحت فيه آية الانجيل : « من ثمارهم تعرفونهم »^(١) و« كل شجرة صالحة تثمر ثمرًا جيدًا »^(٢) وما كان احداً اغزاً لديه واقرب اليه من الاتقياء . فكان يهشُّ لهم ويحبهم ويستأنس بهم ويتحدث عنهم ويثنيهم وينقاد الى آرائهم ويعتمد عليهم اكثر من اعتماده على ذاته . ولكنه كان يقطب حاجبيه ، وتبدو عليه ملامح الكآبة والقم عندما يصرف بسوء سيرة احدهم . اني قد طالمت اكثر من مائتي سيرة من سير الصالحين فلم ار في حياتهم الفردية ما يزيد على حياة البطريرك الحويك في حياته الروحية الفردية نحو ربه بل يفضل بعضهم بانه لم يكن « ورسواً في حياته ولا تبدو فضيلته بظهور صم يستحيل على الناس الاقتداء بها . فكان يأكل جيدًا ، دون ان يشرب قط مسكرًا ، وكان ينام جيدًا ، ويعمل كل شيء جيدًا ، بتقريب وسذاجة مثبًا في حياته كلام الرسول القائل :

« اذا اكلمت او شربتم او علمتم شيئاً فاعلموا كل شيء لتعجيد الله »^(٣)

فكان يمجّد الله في جميع اعماله وكانت فضيلته محبوبة جذابة يراه الماروني ويراها المسيحي ويراها المسلم والدردزي والشيعة ، ارفع والوضيع ، الحاكم والمحكوم ، فيتعني كلٌّ منهم يلتم راحته ويقف مكتوف اليدين امامه مأخوذاً بجلاله ووقاره وسذاجته المهابة مقتنماً في نفسه انه امام « رجل الله » .

(٢) متى ١٢: ٧

(١) متى ١٦: ٢

(٣) الاول الى كورنثس ١٠: ٣١

